من صور العطف في الذكر الحكيم (ثم)

الأستاذ: السعيد بوخالفة
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
جامعة العقيد الحاج لخضر. باتنة

لعلـــه مـــن دلائل الإعجاز أن يفيض القرآن الكريم من ندى فصاحته على الدراســـات التـــي تتناول نظمه ما يجعلها أكثر ثراء وخصوبة، وأرحم فهما، وأبين قولا، ويشيع فيها من نور بيانه ما تبدو به أكثر ألقا و أبعد رؤية وأهدى سبيلا.

وإذا كانـــت مناهج البلاغة قد ضاقت عن البحث في حروف العطف سوى الواو، بحجة أن وحدها بحاجة إلى دراسة الربط بها لافتقارها إلى معنا زائد يوجب ذكرها أو تركها، كما هو الشأن بالنسبة إلى غيرها من أدوات الربط، فإن كتاب الله تعـــالى قـــد وســـع هـــذه الحروف، فأثرى دلالتها وهيأ لها نوافذ للدراسة، بعد أن أوصدت أمامها الأبواب في مباحث البلاغيين.

ومـــمـــا لا شـــك فـــيه أن العطف أسلوب من الأساليب النحوية، معناه الرد والإتباع، وتقوم على تحقيقه مجموعة من الأدوات، يختص كل منها بمعنى أو أكثر يمـــيزها عموما من أخواتها، وقد تبين فيها المفسرون معاني "الواو" و" الفاء" و"أو" و"ثم" و"ما" وعرضوا لجوانب الاختلاف واللقاء فيما بينها ونيابة بعضها عن بعض، وأقـــاموا بعـــض المقارنات في معانيها وضلالها الخاصة بالنصوص، ولم يدخروا جهـــدا في ذكر الأقوال المتعددة في معانيها القريبة منها المعروفة والبعيدة النادرة، وسجلوا ملاحظاتهم في جوانبها، وتتبعوا أثرها في بعض الأحكام والمذاهب.

ونظـــرا لمـــا للحرف "ثم" من أهمية في الربط بين الجمل أحببت الوقوف عنده في هذه العجالة مبرزا ما للمفسرين من آراء فيها.

لقد خاض الرجال في معاني "ثم" فذكروا فوائدها الأساسية، ولشتد غرامهم بمواضـــعها المخـــتلفة من النصوص القرآنية، فكشفوا النقاب عن جوانبها البلاغية وضلالها الجمالية ودقت ملاحظاتهم في الكشف عن أسرارها، وأظهروا بما وصفوه وعبروا عنه تذوقا أصيلا، ورهافة حس، وتمثلا عميقا لجوانب علم المعاني وخفايا التركيب في أسلوب القرآن المعجز.

فقـــد ذكر الفراء أن هذه الأداة كالفاء في الترتيب، فإذا قلت: زرت عبد الله ثم زيدا، كان الأول قبل الآخر.[1]

وأضاف الطبري أنها تؤذن بانقطاع ما بعدها عما قبلها[2].

أما الزمخشري فقد عبر عن ذلك بالتراخي والتطاول الزمني والوجود بين المتعاطفين، قال في توجيه قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لـــم يرتابوا)[3]، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة[4].

وزاد أبو حيان معنى المهلة وحمل على ذلك نصوصا كثيرة[5].

وبيـــن الفراء أن هذه الأداة قد تكون للترتيب في الذكر، فلا يكون ما بعدها تاليا لما قـــبلها بل متقدما علي، ولكن تأخيره جرى في الذكر، وربما جعلوا ثم في ما معناه التقديم ويجعلون ثم من خبر المتكلم، من ذلك أن تقول: "بلغني ما صنعت يومك هذا ثـــم ما صنعت أمس أعجب فهذا نسق من خبر المتكلم". وأجاز أن يحمل على ذلك: قوـــله عز وجل: (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها)[6]. لأن جعل الزوج كائن قبل الولد وقد وافقه في ذلك أغلب المفسرين[7].

وفـــوق ذلك راح الرجال يتتبعون معاني "ثم" البلاغية في الآيات الكريمات ويـــتأملون غاياتهـــا ومراميها فوجدوها تشعر بتراخي المنزلة والاستبعاد والمبالغة والتعظـــيم والـــتعداد والتعجب والتقريع والتوبيخ، ولكنهم اختلفوا في هذه المعاني، وأجازوا في بعض المواضع أن تحمل على أكثر من واحد منها.

فقد ذكر الزمخشري أنها تفيد التراخي في المنـــزلة في قوله تعالى: (وإني لغفـــار لمـــن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى)[8]. قال: وكلمة التراخي دلت على تبايـــن المنزلتيـــن دلالـــتها على تباين الوقتين في: جاءني زيد ثم عمرو، أعني أن منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه، لأنها أعلى منها وأفضل[9].

فهـــو يشتق من الدلالة الأساسية لمعنى "ثم" وهي التراخي في الزمن معنى اعتـــباريا قيميا ويوازن بين ما قبلها وما بعدها ويفاضل بينهما ويرى أن ما بعدها أرفـــع مما قبلها وأعلى قيمة ومرتبة مثلما يكون معطوفها في الزمن بعد ما قبلها، وقد عبر عن هذا المعنى في مواضع مختلفة من تفسيره[10].

وتابع صاحب الكشاف في هذا المعنى عدد من المفسرين رددوا أقواله في النصوص وحملوا نصوصا أخرى عليه[11].

أمـــا موقـــف أبي حيان فبدأ مضطربا منه، حيث تبنى هذا المعنى دون أن ينســـبه إلى صاحبه كقوله في واحدة منها:" ودخلت ثم لتراخي الإيمان والفضيلة لا للتراخي في الزمن"[12].

وجعـــل الرازي (ثم) للتعجب، في نحو: إني أحسنت إليك وفعلت كذا وكذا ثـــم أنت تقصدني بالسوء وحمل على ذلك قوله تعالى☹ إذا واعدنا موسى أربعين لـــيلة، ثـــم اتخذتـــم العجل من بعده)[13]، وسمى القرطبي ذلك تعجبا وحمل مواضع أخرى[14].

ونقـــل هـــذا الأخـــير عـــن ابن عطية أنها تعيد التوبيخ في نحو أعطيتك وأكرمـــتك ثـــم تشتمني وفي قوله تعالى:(الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)[15].

واخـــتلفوا في نيابة هذه الأداة عن بعض أخواتها، فأجاز الأخفش أن تنوب عن الواو وتكون لمطلق الجمع، في قوله تعالى:(ولقد خلقناكم ثم صورناكم)[16]، أي خلقناكم وصورناكم"[17].

وجرى عليه أبو حيان في مواضع مختلفة من تفسيره تخلصا من بعض إشكالات ثم كقوله تعالى: (ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون، ثم أتينا موسى الكتاب"[18].

قال :" والذي ينبغي أن يذهب إليه أنها استعملت للعطف كالواو من غير اعتبار مهلة وقد ذهب إلى ذلك بعض النحاة"[19].

وضع ذلك الزجاج موضحا أن مذهب المنح للخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعربيته[20]. وقصره الطبري على الضرورة الشعرية[21].

وبعيدا عما ذكره المفسرون من معانيها، فقد اختلفوا في تحديد كثير منها في النصوص، وذكر لها بعضهم ولا سيما المتأخرون اكثر من وجه من غير أن يقطعوا بأحدها، أو قلما أثروا واحدا على آخر.

ففي قوله تعالى:"واتقوني يا أولي الألباب، ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم، فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس، واستغفروا الله، إن الله غفور رحيم"[22].فذهبّ الطبري إلى أن (ثم) للترتيب والتراخي وذلك على أن المراد بالإضافة بعد "ثم" هنا إفاضة أخرى غير التي من عرفات وهي من المزدلفة[23].

وذهب الزمخشري إلى أن (ثم) للتراخي في المنزلة وبعد ما بين الإضافتين وتفاوتهما وهذا يعني اختلافهما أيضا[24].

أما الرازي فقد ذكر أنها للترتيب في الخبر، وذلك على أن الإفاضة هي نفسها التي من عرفات[25].

أما القرطبي فقد أشار إلى أنها الابتداء خبر جديد على التوجيه نفسه[26].

وذكر أبو حيان أن بعضهم جعلها بمعنى الواو ولا تدل على ترتيب كأنه قال:

وأفيضوا من حيث أفاض الناس، ونقل عن بعضهم، أنه جعلها على بابها ولكنه جعل في الكلام تقديما وتأخيرا حيث جعل (ثم أفيضوا) معطوفا على قوله: (

واتقونـــي يا أولي الألباب)، والتقدير: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله عن الله غفور رحيم، ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإن أفضتم من عـــرفات، وعلـــى هذا تكون الإفاضة نفسها، ولكن أبا حيان رفض هذا الوجه لأن الـــتقديم والتأخـــير خـــاص بالضرورة، والقران منزه على حمله عليها ورجح قول الطبري[27].

لقد حاول المفسرون أن يحملوا "ثم" على معناها القريب المطرد واستعانوا فـــي ذلك بوسائلهم التفسيرية المختلفة ولكنهم لم يجدوا ضيرا في استعراض الأوجه المحـــتلمة وإجـــازة أوجه ذكرت قبلهم وكان لها في الصواب مخرج، فأجازوا أن تحمـــل علـــى وجهيـــن أو اكـــثر، على أن تقديمهم لبعضها في الذكر كان يشعر باهتمامهم وترجيحهم.

وخلاصـــة القـــول : إن معاني الأدوات العاطفة غنية متكاثرة، وقد فصلها المفســـرون بدقة، وانعموا النظر جوانبها البلبغة ونكتها اللطيفة، ووقفوا على معظم مواقعهـــا، ودللـــوا باخـــتلافاتهم على التماس الشديد فيما بينها وصعوبة الفصل في بعضـــها، وأكـــدوا أن بعـــض هذه الأدوات تتقارب في الدلالة تقاربا كبيرا كما هو الشان بالنسبة للفاء ثم لاشتراكهما في الترتيب والتعقيب وأظهروا أنها تتناوب كثيرا فـــي تأديـــة المعاني كوقوع الفاء، واو، وثم بمعنى الواو، وحاول بعضهم أن يحدد لكـــل حـــرف معـــناه الأساسي على اختلاف منزعه والمصطلحات التي استخدمها وعالج بها مسائلها.

الهوامش:

[1]- معاني القران للفراء، 396/1.

[2]- تفسير الطبري 128/8.

[3]- الحجرات، 15.

[4]- الكشاف 377/4.

[5]- البحر المحيط 146/1 و 250/2 و 329/5.

[6]- الزمر 06.

[7]- تفسير الرازي 182/5. والبيضاوي 150 والنسفي 221/1 والبحر المحيط 31/3.

[8]- طه 82.

[9]- الكشاف 80/3

[10]- ينظر: الكشاف 665/1 و 425/3 و 198/4.

[11]- ينظر: الرازي 164/12، والبيضاوي 150، والنسفي 40/1.

[12]- البحر المحيط، 476/8.

[13]- البقرة: 51

[14]- القرطبي: 72/19

[15]- الأنعام: 1.

[16]- الأعراف: 11.

[17]- الأخفش: 512.

[18]-الأنعام 153.

[19]- البحر المحيط، 255/4..

[20]- معاني القران للزجاج، 345/2

[21]- الطبري، 128/8.

[22]- البقرة، 197-199

[23]- الطبري، 291/2.

[24]- الكشاف 274/1.

[25]- الرازي 180/5.

[26]- القرطبي: 2/ 427.

[27]- البحر المحيط 99/2.